كلمة الأستاذ الدكتور أحمد محمد قدور

في حفل استقباله عضوا

في مجمع اللغة العربية

الأستاذ الجليل رئيس المجمع

الأساتذة الجلّة أعضاء المجمع

السادة العلماء

أيتها السيدات، أيها السادة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإني أحمد الله الذي وفّقني لأكون واحدا من أعضاء المجمع، وأشكر الأستاذ رئيس المجمع الذي تفضل بتقديمي إليكم، وهو من أصحاب الفضل والعلم والغيرة على العربية، كما أشكر السادة أعضاء المجمع - ولاسيما أستاذي الدكتور مازن المبارك - على ثقتهم بي وحسن ظنهم بما يمكن أن أقدمه من جهود لننهض برسالة العربية ونعمل بتوجيه قائد الوطن الرئيس الدكتور بشار الأسد (حفظه الله). كما أشكر أخي الأستاذ الدكتور عيسى العاكوب على تفضله بالحديث عني في هذا الحفل. والدكتور عيسى واحد من الإخوة الذين شاؤوا أن أحظى بشرف الصحبة وتقاسم الأعباء في مجمعنا الزاهر مجمع اللغة العربية بدمشق.

واسمحوا لي - أيها السادة - أن أتحدث عن واحد من أسلافنا في هذا المجمع، وهو المجاهد المعلّم رشيد بقدونس الذي مر على ولادته مئة وخمسة وثلاثون عاما. فهو رشيد بن عبد الرزاق بقدونس الشامي. ولد في الصالحية بمدينة دمشق عام ١٢٩٢هـ، الموافق ١٨٧٥م. وكان أبوه معلّما في أحد مكاتب الصالحية. درس في المدرسة الرشدية العسكرية، ثم تابع دراسته في المدرسة الحربية في الآستانة، وكان من خرذيجيها عام ١٨٩٥ برتبة ملازم في سلاح المشاة. وعين في جزيرة كريت، ثم نقل إلى سالونيك، حيث تعلّم اللغة اليونانية. وحارب بعدئذ في البلقان، وأسر غي اسبارته عام ١٩١٣ في الحرب مع اليونان، وبقي في الأسر سنة ونصف السنة، ثم حارب في القوقاس إبان الحرب العالمية الأولى، ثمّ في فلسطين بين عامي ١٩١٧ – ١٩١٨م.

وانتسب المجاهد رشيد بقدونس إلى الجيش العربي في تشرين الأول عام ١٩١٨م، وعين برتبة قائد في الشعبة الثالثة من ديوان الشورى الحربي في الدولة الفتية التي أسسها الملك فيصل بن الحسين. وكان عضوا في لجنة خاصة بالجيش برئاسة ياسين الهاشمي، وعضوية مراد الاختيار وعبد القادر المبارك، وقد عرفت هذه اللجنة بلجنة التعريب التي كان رشيد بقدونس يترأسها بسبب كثرة تنقلات رئيسها ياسين الهاشمي بين دمشق وعمان وبغداد.

ولمّا صدر القرار القاضي بإنشاء المجمع العلمي بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩١٩م، وعقد المجمع جلسته الأولى يوم ٣٠ تموز من السنة نفسها كان رشيد بقدونس أحد أعضاء المجمع الاثني عشر.

وذكر الدكتور مازن المبارك أن لجنة التعريب التي سبقت تأسيس المجمع كانت من أطول اللجان عمرا وأخلدها أثرا في التعريب عامة والمصطلحات العسكرية خاصة.[1] لكن الفرحة لم تتم، فسرعان ما دخل الفرنسيون ميسلون يوم ٢٤ تموز من عام ١٩٢٠م غزاة محتلين. ومارس السيد رشيد بقدونس التعليم، فدرس في مكتب عنبر، ودار المعلمات بدمشق، والمدرسة الكاملية التي أسسها الشيخ محمد كامل القصاب، وكان وطنيا مقداما وعالمًا غيورا.

---

(١) انظر: مازن المبارك، مجمع اللغة العربية بدمشق، تعريف تاريخي، مطبوعات المجمع ٢٠٠٩م، ص٥.

وحين وصلت المظاهرات والاضطرابات أوجها عام ١٩٢٢م عمدت سلطات الاحتلال إلى القبض على الزعماء السياسيين والمعلمين الوطنيين وغيرهم من المجاهدين. فحكم على السيد بقدونس بالسجن والنفي. لكنه فر من وجه الاحتلال متخفيا بزي الأعراب، قاصدا عمان سيرا على الأقدام. وهناك درس في المدرسة السلطانية في السلط بين عامي ١٩٢٢- ١٩٢٣م، ثم في المدرسة الإسلامية الكبرى في حيفا بين عامي ١٩٢٤- ١٩٢٨م. وبقي حتى صدر قانون العفو العام في سورية عن المقاومين للوجود الفرنسي، فعاد إلى دمشق. وعمل السيد بقدونس في الجهاد والتعليم والتأليف والشؤون الاجتماعية. وأسس في هذا المجال عددا من الجمعيات التعليمية مع أبناء حيه أهل الصالحية وغيرهم من وجهاء دمشق. ولم يأل السيد بقدونس القائد العسكري السابق والمجاهد المعلّم جهدا في سبيل النهضة العربية الشاملة، إضافة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي للشام، وتأسيس دولة عربية تقود الأمة وتحقّق أهدافها، لكن المَنِيةَ وافته يوم ٢١ أيار عام ١٩٤٣م عن ثمانية وستين عاما قبل أن يرى شيئًا من آماله في حرية وطنه ومجد أمته يتحقّق.

ولا بد من الوقوف على ثقافة المجاهد العالم رشيد بقدونس، إذ كانت دراسته في دمشق دراسة عسكرية أهلته لمتابعة الحياة العسكرية، وما فيها من تنقّل بين البلاد التي كانت تحت الحكم العثماني، فجمع بين ثقافته المهنية وثمرات رحلاته ومشاهداته. ثم درس اليونانية والفارسية والفرنسية، إضافة إلى التركية والعربية. وعرف السيد بقدونس بعشقه للتاريخ، وفهمه للحكمة من درسه. فهو يرى أن التاريخ يعرفنا «الممالك في الماضي كيف ترقّت ثم انحطت، فنعرف بأي فضيلة تعالى أولئك الأقوام، وبأي نقيصة انحطت تلك الأمم، فنقطف ثمرة تجارب الأمم الغابرة التي امتدت زمنا طويلاً».[٢] وليست الحكمة من دراسة التاريخ معرفة حضارات الأمم وأسباب نهوضها أو انتكاسها فقط. «بل أن نكشف القوانين التي كانت تولد الوقائع المنفردة، وتعين الأسباب التي هي علة حدوث تلك الحادثات المختلفة،

(٢) انظر: تعريفًا بالمؤرخ المنسي رشيد بقدونس (من وثائق المجمع)، ص ٣- ٤.

وندرك ما يخبئه المستقبل بأن نقيس الأحوال الحاضرة بالأحوال الماضية». وتشير مؤلفاته وآثاره المطبوعة والمخطوطة إلى ثقافة واسعة بالعربية وأصولها ووضع مصطلحاتها. ولا شك في أنّ جهوده في لجنة التعريب وما أثمرته من مصطلحات تحتاج إلى دراسة تفصيلية تنبئ عن المخبوء من جهود هذا العالم الفذّ. ويكفي أن نشير إلى أنه لحرصه على سلامة اللغة العربية اقترح تأسيس مجامع علمية في دمشق وبغداد والقاهرة وتونس والمغرب الأقصى تضم نخبة من رجال العلم والأدب والفن واللغات الأجنبية وبعض المستشرقين. وتكون هذه المجامع مرتبطة بعضها مع بعض بواسطة الأسلاك البرقية، تتناقل سريعا كلّ تعبير جديد ليصار إلى اعتماده من الجميع ونشره في المجلات العلمية والكتب. وذكر منها كتابة الهمزة واستعمال اسم الإشارة، وأقسام الاسم والفعل. وذكر أيضا دفترا فيه مرادفات وأضداد وتعريب كلمات. إضافة إلى كلمات أخرى شائعة لدى العامة حديثًا. ومن آثاره في مجال العربية دراسته حول تعريب الحروف الأوربية التي تخلو منها الكتابة العربية نحو (G, V, P) وله في هذا الصدد اقتراحات حول إصلاح شكل الكلمات (أي تدوين الحركات)، ونحو ذلك مما نشر في مجلة المجمع، وذكره مؤرخو المجمع كالدكتور محمد رشاد الحمزاوي.[٣] وتدلّ قراءاته - كما روى ابنه الأستاذ زهير - العالمية الثانية حالت دون ذلك، وانقطعت على ثقافة لغوية ودينية واسعة. فقد كان العالم رشيد بقدونس يدون الكثير من الملحوظات على حواشي الصفحات، بل بلغ به الأمر حدا أنه طلب من فني التجليد أن يترك له ورقة بيضاء بين كل ورقتين من الكتاب الجاري تجليده حتى تتاح له المساحة الكافية لتدوين ملحوظاته وتعليقاته. وقد ظهر من هذا النحو أشياء دونت على حواشي «لسان العرب» و«زهر الآداب» و«ديوان الطغرائي» وغير ذلك.

أيتها السيدات، أيها السادة:

وللمجاهد العالم رشيد بقدونس آثار كثيرة، منها المخطوط، ومنها المطبوع. وربما كانت تنقلاته وحياته المضطربة مسؤولة عن بقاء معظم ما ألّف مخطوطًا مجموعا

(٣) انظر: محمد رشاد الحمزاوي، مجمع اللغة العربية بدمشق والنهوض بالعربية، دار التركي للنشر ١٩٨٨م، تونس، ص ٧٣- ٧٤، وانظر مقالة بقدونس في الجزء الخامس من مجلة المجمع، ص ٤٩٨- ٥٠٥.

أو مشتتا، فضلاً عما هو مفقود. ويذكر في هذا الصدد أنه ألّف بناء على طلب الإدارة المعنوية في الجيش العربي إبان العهد الفيصلي رسالة لنفح الشعور بالانتماء العربي، وتعداد مفاخر الآباء والأجداد، فجاءت في ثلاثين صفحة مع مقدمة للمؤلف. ومن أعماله في المجال العسكري ترجمة كتاب «تعليم المشاة» عام ١٩١٩م، الذي وضع له تفسيرا في كتاب «إيضاح المبهمات من كتاب تعليم المشاة». ومن هذه الأعمال في هذا المجال مع المصطلحات والتعريب، أعمال رائدة ومؤسسة من دون أدنى شك. أما مؤلفاته في مجال التاريخ فله سلسلة «التاريخ العام» من ثلاثة أجزاء صدرت في دمشق بين عامي ١٩٢٩- ١٩٣١م، وهي تتناول الأحوال القديمة وتاريخ المصريين واليونانيين والروم والآشوريين والفينيقيين والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة.

وللأستاذ بقدونس آثار أخرى معظمها ما زال مخطوطًا، نحو «تاريخ الكنيسة»، و«تأريخ القرون الأخيرة» و«الطب عند العرب». وهناك باللغة التركية مقامات ترجمها عن العربية لبديع الزمان الهمذاني و«تاريخ الدولة العثمانية» وله في اللغة اليونانية التي أتقنها آثار تعد أربعين دفترا، يعتقد أنّ قسما منها لتعلم اللغة اليونانية، وأن قسما آخر يحوي دراسات وموضوعات شتى. وسعى الأستاذ رشيد إلى نشر بعض مؤلفاته باليونانية فأرسلها إلى اليونان لطباعتها، لكن أحداث الحرب أخبار الطباعة، ثم ما لبث الأستاذ بقدونس أن توفي قبل انتهاء الحرب.

أيتها السيدات، أيها السادة:

أما فكره السياسي، فكان عروبيا، فقد أسهم في حركات القوميين العرب، ولا سيما بعد انقلاب ١٩٠٨م في الدولة العثمانية. ويذكر في هذا الصدد أنه شارك في تحرير صحيفة «وطن» الصادرة باللغة التركية في مدينة كولكي سالونيك حيث كان في الجيش العثماني. وجعل منها منبرا للتوعية والتوجيه. ثم ألّف مع عدد من زملائه حزب العهد عام الذي افتتح له فروعا في بيروت ودمشق وحلب والموصل والبصرة. وانضم إلى الحزب عدد كبير من الضباط العرب الذين اجتمعوا على ضرورة التحرر من الدولة العثمانية التي بدأت تتجه اتجاها تركيا خالصا بعيدا

عن مفهوم الخلافة العثمانية. وكانت الجهود تسعى إلى تأسيس كيان عربي حر موحد. لكن الحزب سرعان ما ألغى عام ١٩١٤م، ورحل مؤسسه المقدم عزيز علي المصري إلى بلده مصر، وكان المجاهد السيد رشيد بقدونس فخورا بكونه عربي المحتد ينتمي إلى الأمة العربية التي جمعها الإسلام على مبادئ الحضارة والعلم والإنسانية. وهكذا عبر عن الالتحام بين العروبة والإسلام، إذ سمت العروبة بالإسلام الذي جعلها أمة ذات رسالة بين الناس. أما اللغة العربية فهي وعاء الحضارة الذي ينبغي أن يصان، ولذلك راح يدافع عن العربية، ويسهم في تنقيتها وتطويرها وتعليمها ومواجهة ما يزاحمها من اللغات الأخرى كالتركية والفرنسية.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ المجاهد السيد رشيد كان واعيا لنيات الإنكليز والفرنسيين الذين تآمروا على العرب واستقلالهم ووحدتهم المنشودة. ولذلك قاوم تقسيم سورية الطبيعية وفرض الانتداب على أجزائها، وأسهم في الجبهة الوطنية المتحدة عام ١٩٣٦م، وشارك في المؤتمر القومي العربي في بلودان عام ١٩٣٧م، ولم تفتر همّته في التحريض على الاحتلال وبعث الفكر القومي وتعليم التاريخ واللغة والمآثر العربية للوصول إلى التحرير والوحدة وإعادة المجد الغابر. وهناك شاهدان على عمل السيد بقدونس في التعليم الممزوج بالعروبة. الأول ذكره الأستاذ سعيد الأفغاني في معرض حديثه عن أثر المدارس الأهلية في نهضة اللغة العربية، ولا سيما المدرسة الكاملية التي أسسها الشيخ محمد كامل القصاب، وكان يدرس فيها نخبة من شبان العرب الناهضين عسكريين ومدنيين. فقد ذكر الأفغاني أنّ رشيد بقدونس من هؤلاء المدرسين المؤمنين برسالة العربية وتاريخها. ومنهم عبد الوهاب الإنكليزي وعبد الرحمن الشهبندر وعارف الشهابي وشكري العسلي وصالح قنباز وسليم الجندي وأسعد الحكيم وسعيد العاص وهم من أعلام العربية والعلم والوطنية في الشام(٤). وذكر الأفغاني أيضا أنه «قلّ أن سمعنا ونحن صغار بوطني مقدام أو عالم غيور أو مكافح شجاع إلا كان من خريجي هذه المدرسة».

(٤) انظر: الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، دار الفكر، ط. ثانية، بيروت، ص ٢٨- ٢٩.

والثاني من الشاهدين على عمل السيد بقدونس في التعليم الممزوج بالعروبة، ما ذكره الأستاذ ظافر القاسمي في كتابه «مكتب عنبر، صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية»، ومكتب عنبر معقل العروبة لغة وأدبا وتاريخًا ونضالاً، كان بركان الشام أيام الفرنسيين، يقذف بالمظاهرات العنيفة كلّما ألمّت بالبلاد نازلة، فتغلق المحلات وتتعطل المتاجر، وسرعان ما تحذو بقية المدن حذو دمشق بطلابها وعمالها وتجارها. ولم يكن هذا المعقل العلمي صدى لما يحدث في الوطن الصغير، بل كان صدى لما يحدث في الوطن الكبير والعالم، ولذلك تفنن الفرنسيون في تغيير إدارة المكتب والتجسس على أساتذته، لكن ذلك ما كان إلا ليزيد الروح العربية ضراما في النفوس الناشئة المتطلعة إلى العلم والحرية معا.(٥) وأورد الأستاذ القاسمي في كتابه حادثة شهيرة جرت مع الأستاذ بقدونس تحت عنوان «رشيد بقدونس: أول من جاهر بتعليم الوطنية للطلاب في قاعات الدرس. كان بطلاً من أبطال الثورة الفكرية». يقول القاسمي: «وقع الاحتلال في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م، وكان الطلاب في العطلة الصيفية. واستؤنفت الدراسة كالمعتاد في أوائل أيلول. لم يكن من حديث بين الطلاب إلا الفاجعة وآثارها، وسبيل الخلاص منها... روي لي أن المرحوم رشيد بقدونس، وكان أستاذًا للتاريخ، ندد بالاحتلال، وبهذا الانتداب الذي فرض فرضا. وكان في الصف طالب أراد أن يتخابث فقال للأستاذ: دعنا من هذا الحديث، وهو يتظاهر بالخوف على الأستاذ من أن يصيبه أذى. وإذا بصوت رشيد بقدونس يعلو حتى يكاد يسمعه كلّ من في مكتب عنبر. وينهض من مقعده ويصيح في وجه الطالب المتخابث: اذهب إلى (غورو)، وقل له: إن رشيد بقدونس يعلّم الطلاب الوطنية!».(٦) ويضيف الأستاذ القاسمي معلّقًا على الحادثة: «إنّ صيحة صاحها رشيد بقدونس في ذلك الزمان تعادل في نظر المُنصف مدافع تصوب

(٥) انظر: الأفغاني، ص ٨٠، وظافر القاسمي، مكتب عنبر، صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٠٤.

(٦) انظر: القاسمي، مكتب عنبر، ص ١٠٥- ١٠٧.

إلى معاقل المحتلين، ولا أبالغ إذا قلت إن هذه الصيحة الأولى هي التي تسبقها الثورات الفكرية، ويعتقد في صوابها الجمهور. رحم الله رشيد بقدونس الرائد الأول للوطنية في مكتب عنبر، كان بطلاً من أبطال الثورة الفكرية، وسيبقى اسمه في سجل الخالدين».

لقد رأى الأستاذ بقدونس أن طريق القوة لهذه الأمة هو تحررها ووحدتها، وأن سبيل نهضة العربية هو تأسيس مجامع لغوية علمية في العواصم العربية تتداول فيها المصطلحات العلمية والكلمات الجديدة ليجري تعميمها. ولا أشك لحظة في أنّ ما انتهى إليه هذا الرجل ما زال هدفًا وغاية لكل المؤمنين بهذه الأمة الخالدة ورسالتها العلمية وغاياتها الإنسانية النبيلة. إنّ ما عبر عنه فكر هذا المجاهد هو جماع عناصر الهوية الثقافية للأمة، وهي الهوية التي تنبثق منها حركات النهضة والتجديد في جميع المجالات. وتتمثل هذه العناصر في اللغة العربية، ومشروعها في التعريب المقاوم للتغريب والفرنجة في اللغة والمصطلح والترجمة وغير ذلك. كما تتمثل في التاريخ العربي - الإسلامي بوصفه ذخيرة الأمة ومثلها وسيرة رجالها ومجال تحقّقها. وتتمثّل كذلك في الدين ورسالته السامية، فالإسلام جوهر العروبة ومعناها وعنوان ثقافتها. وتتمثل أيضا في الخصائص الاجتماعية للأسرة والحي والسوق والقرية والعشيرة والتنظيمات الأخرى. وتتمثل أخيرا في عملية التربية المنظمة ومناهجها وتشكيلها للأجيال. وهي التي تخرج تلك القيم من حيز القوة إلى حيز الفعل.

أيتها السيدات، أيها السادة

تلك شذرات من سيرة هذا الرجل الذي احترف الجهاد في هذه البيئة الدمشقية التي ورث عنها المعلمون والأدباء والمصلحون تقاليد أصيلة عريقة في مدينة هي أم القرى وما حولها من بلاد الشام والعروبة، في مدارسها ومكتباتها ومجالس علمائها وآثار من درجوا على صعيدها الطيب.

وصدق الأخطل الصغير حين وصف دمشق بقوله: (٧)

تيها دمشق هل المفاخر والعلى ... غـير الجهـاد وصـلْته بجهـاد

تلك الشمائلُ من شيوخ أميـة ... عباقـةُ النفَحـات في الأحفـاد

(٧) انظر: شعر الأخطل الصغير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت، ص ١٤٠- ١٤١.

الحاملين الشمس فوق وجوههم والحاملين الشـهب في الأغمـاد
خلَعت صوارمهم على راياتهم حلـلاً مصـبغةً مـن الأكبـاد
ورموا بها أم الزمـان فأنجبـت غُـرر الملـوك وقـادةَ القـواد
إني وقفت بها أسائلُ عن فـتى من آلِ جفنـة رائـحٍ أو غـاد
«يسقون من ورد البريص عليهم» طرب النفوسِ ورونـق الأجسـاد
بيت العروبة كالمقـامِ نقـاوةً وعكاظَ في الإطـرابِ والإنشـاد
تتفجـر الأنغـام في جنباتـه من صدرِ صادحه وشـعرِ زيـاد
هو منبت لمكارمٍ هو مطْلَـع لكواكبٍ هـو ملعـب لجيـاد
حسانُ لم ينقلْ سوى صـلواته السمحاءِ في مدحِ الرسولِ الهـادي

ويتطلّب مني الإنصاف والإقرار بالفضل أن أذكر ما قدمه الأستاذ المهندس زهير رشيد بقدونس نجل المجاهد المحتفى بذكراه من معلومات كانت الأساس الذي بنيت عليه هذه الكلمة الوجيزة، إضافة إلى إخلاصه لذكرى والده، وعمله على إحياء آثاره، وإقباله على زملاء والده في مجمع اللغة العربية وعارفي فضله من الأجيال التالية. والأمل معقود على أعمال الأستاذ زهير لتأليف كتاب شامل عن والده، ونشر ما يمكن نشره من آثاره، وإعادة طباعة ما طُبع منها قبل نحو تسعين عاما. ولا شك في أنّ مجمعنا الزاهر سيسهم في كلّ ما من شأنه إحياء ذكرى المجاهد بقدونس، والكشف عن أعماله، وبيان مكانته في مجمع اللغة العربية الذي كان أحد مؤسسيه والسباقين لتحقيق أهدافه.

رحم الله المجاهد العالم المجمعي المربي الأستاذ رشيد بقدونس رحمة واسعة كفاء ما فكّر وعمل وجاهد وأخلص، وأسكنه فسيح جناته، ورفع درجته مع الذين عناهم بقوله: ﴿يرفَعِ الله الذين آمنوا منكُم والذين أُوتوا الْعِلْم درجات والله بِما تعملُونَ خبِير﴾ [المجادلة/ ١١].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.